

جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب القدامى : الأفراح واللهو واللعب

الدكتور الطاهر دراع

قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

الجامعة: الأفريقية العقيد "أحمد إدراية" - أدرار - الجزائر



يتناول هذا الموضوع جوانب من القيم العربية القديمة وأثرها في واقع حياة الإنسان العربي، وقد يلاحظ القارئ جوانب هامة ودقيقة إلى حد بعيد من خلال هذه الدراسة التاريخية الاجتماعية حسب ما تيسر لنا من مادة معرفية.

للكشف عن القيم الإنسانية والاجتماعية لدى الإنسان العربي من خلال واقعه ومن خلال ما جاء في القرآن الكريم باعتباره أصدق مصدر كتابي من غيره، كما أننا نهدف إلى تفنيد بعض الآراء الاستشراقية التي تحاول إلصاق بعض النقايص في الإنسان العربي مع الحرص على التقيد بالموضوعية والوفاء للأمانة العلمية.

*

* *

بالقبيلة والأهل، و"أنّ أعلام قومه وراياتهم بيض بأفعالهم الحميدة لأنهم كرام".

ويجد الخائف المستجير لدى من استجار بهم الأمن والطمأنينة، ومن القيم الحمودة عندهم أن الأقوياء برجالهم وأموالهم لا يجرؤون على اختراق حرمة خيام العشيرة

أولا/ أهمّ السجايا العربية التي دوّنتها المصادر:

تتفق جل المصادر والمراجع على أن الكرم صفة من صفات النبل، التي لازمت العربي منذ أقدم العصور، كما تتفق على أن العربي هو نموذج متميز في الشجاعة والاعتزاز بالنفس وشدة البأس وقوة الشكيمة والافتخار

المنتشرة في كل مكان بالبادية مهما كانت مكانتهم الاجتماعية.

وكما قال أحدهم في وصف تلاحم العرب بعضهم ببعض ودفاعهم عن أخلاقهم وتقاليدهم: "إن قومي عز للضيف والجار، وبقوة وفخر لكل من قال قولاً، وهم عظام ثقال بوقارهم ورزانتهم، كالحجر إذا وزنته فليسوا خفاف الوزن كحجر المتقلبة"^(١)،

وإذا كان غرينا يشبه الماء في شهر نيسان "أفريل" الذي يطفو على الجبال والنوائى ويعمها ويغريها بسيله وتدفعه" ولعل تخصيص نيسان بهذا الوصف هو أن الشمس يبدأ سطوعها وحرارتها الملتبهة ابتداء من هذا الشهر فتداهم ثلوج الشتاء المتراكمة على الجبال فتذئبها وتصبح مياهها متدفقة غزيرة.

والحق أن العربي لم يكن يدافع عن حرمة قومه وعشيرته فحسب، بل فقد كان فخوراً بعاداتهم وتقاليدهم والحفاظ على جريان الدم بينهم فهو يحب الزواج من بنات الأسرة ولا يفضل عنهن أحداً، لكي يبقى النسل محافظاً على صفاته الوراثية وخاصة التي يتميز بها الإنسان العربي في البادية.

يقول العربي في الافتخار بتواصل النسل: "إن أهلنا من عظماء الناس وخوولتنا من العمومة، ولا تحقد ولا نحمل ضعفنا على الذين ليسوا مثلنا على هذه الشاكلة، ولكن

إذا كان الناس نجوما فنحن نجم الجدي الثابت، الذي لا يزول بينما النجوم الأخرى قهوى وتسقط وتغيب"^(٢).

ومعنى هذا النص أن صاحبه يريد إظهار شأن قبيلته ومزلتها الاجتماعية بين قبائل البدو الأخرى الضاربة في البادية.

ومن القيم النبيلة التي اشتهر بها العرب قديماً تضحية الفرد من أجل الجماعة التي ينتسب إليها ولو ألحق ذلك ضرراً بمصلحته الخاصة ويرفض الظلم والتعدي ولو كان في مصلحة قبيلته، إلا في حالة الغزو والدفاع عن النفس وأصبحت الطاعة والتضحية في سبيل الجماعة عرفاً يقوم مقام الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية، وقد اشتهر العربي بحصان أخرى تضرب بجذورها في أعماق تاريخ أمته العريقة: كالغفة والأنفة والصبر على المكاره، قال عنتر بن شداد العبسي^(٣):

سأبيت على الطوى وأظله

حتى أنال به كريم المأكّل

وقوله:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك

إن كنت جاهلة بما لم تعلم

يخبرك من شهد الوقعة أنني

أغشى الوغى واعف عند المغنم.

د. الطاهر دراع

3- الحرص على ستمعه بين الناس وإغداقه الأموال من أجل ذلك على الشعراء المشيدين بمكانته.

4- قوة الذاكرة عنده في حفظ قيم قومه ومفاخره وجلائل أعمالهم مما جعل المجتمع العربي القديم يستغني عن التدوين على عكس الشعوب الأخرى، التي كانت تتنافس من أجل التدوين.

هذه بعض القيم الأخلاقية التي تميز بها العرب قديما حتى أن شريعة الإسلام قد أقرت كثيرا من هذه الخصال والممارسات المنسجمة مع الطبيعة البشرية وما كان يطبق من غير سند ديني أو قانوني أصبح أمرا مشروعاً ومؤكداً في القرآن الكريم.

ومن هنا فإن الروايات التي كانت تصف العرب بالجهل والهمجية والعدوانية، قد أصيبت بالشلل المزمن، لأن الاستكشافات والدراسات الأثرية قد أثبتت بطلان كثيرا من الروايات والأساطير التي ربما كانت من ترويح الشعوبية وفي الوقت نفسه أكدت على كثير من الحقائق التي وردت في القرآن الكريم.

غير أن الشيء الذي لا سبيل إلى إنكاره هو أن الحياة العربية القديمة كانت مليئة حقاً ببعض الممارسات السلبية مثل: الغزو وواد البنات عند البعض والأخذ بالثأر والحمية.

هذا وكان العربي ولوعاً بالحرية الشخصية والابتعاد عما يقيده في حياته اليومية في ما لا يضر قومه وعشيرته.

وكان تفكيره التأملية منصبا على التغني بالجمال ومفاتن الطبيعة وصور الفروسية وأدوات القتال والصيد في البادية.

وإذا كان العربي يعزف بطبيعته عن الأخذ بالتجارب العربية وعن التوقف عن مظاهر الكون، فإنه لم يغفل ما يهمه في معيشتهم من الظواهر الطبيعية المفروضة عليه بحكم احتكاكه بها وديمومته بالتعامل معها مثل: النجوم والقمر وتعاقب الفصول وكذلك في احتكاكه الدائم مع الناس كل ذلك جعله يكتسب دقة التمييز بين السمات البشرية.

والحق أن نجاح العربي في هذه الميادين كلها لا ينكره إلا جاحداً أو متحامل ومن أبرز الصور التي عبر بها العربي عن وفائه والتزامه إزاء البشر والطبيعة على حد سواء.

1- عشقه الجمال باختلاف صوره ولما فرضته عليه الطبيعة الصحراوية.

2- مخاطرته بحياته من أجل عاطفته الجامحة فإذا أحب أصابته لوعة الحب وإذا ظلم قومه دفع عنهم ولو أدى به ذلك إلى التضحية بنفسه.

ولا شك أن العادات والقيم العربية كانت نتيجة مباشرة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وانعكاسا للبيئة الصحراوية الشحيحة الموارد القاسية الجافة المناخ.

ويقول المستشرق الألماني "جولد زيهر" Guold Zihher: "إن صفة المروءة يمكن أن تشمل الجماعة كلاً لأن الفضائل العليا في كل مجتمع تنتج دوماً عن الحاجات العليا ويكون الخلق كالضمان المعنوي والمؤيد لتلك الحاجات، والعربي المثالي شجاع لأن القبيلة المهتدة دوماً بالغزو محتاجة دوماً للحماية، سريعة النجدة حتى التهور، لأن السير في الصحراء الفلاة غير مأمون وكله ميسر فيها، لا ينام على ثأر مأمون لأنه إن نام، نام الناس عن الثأر له فهي أنانية في شكل غيري..."

وهكذا فالكرم حتى الإسراف دليل الإعسار بل إن فقر البيئة هو الذي يظهر ميزة هذا الخلق ويدعو لوجوده والتمدح به والعصية الشديدة مظهر دفاعي ضد تفكك القبيلة وكذلك حماية الجار والوفاء بالعهد..."

وإذا كنا نلمس هذه الأخلاق في المجتمع البدوي عامة، فإن للعربي أخلاقاً أخرى متأصلة فيه: كالحرية والأرستقراطية والعدل والفردية، التي لا تذوب إلا أمام الولاء القبلي.

أما الغزو فهو صورة من صور اللهو القومي والحاجة والإشباع المادي وليس صنفاً من أصناف اللصوصية أو السطو، لأن القتال في نواميس الصحراء سحية ثم سحايًا الرجولة وبالتالي فهو ركن من أركان الحياة الاجتماعية ويقضي العرب بين القوم أن الدماء لا تسفك إلا عند الضرورة القصوى، وأن الغزو لا ينفذ إلا مع الحاجة المادية الملحة فيغيرون على بعضهم البعض حتى لو كان ذلك على الجيران⁽⁴⁾.

يقول الشاعر:

وأحياناً على بكر أختينا

إذا ما لم نجد إلا أخانا
وهذا الاتجاه في التحليل والاستنتاج يفسر كل القيم العربية الأخرى، فالمفاخرة بالأنساب مثلاً هي نوع من الأرستقراطية وهي من مستلزمات حياة البداوة.

والمنافرة تطبيق للكرم وهي أن يتسابق رجلان أيهما أكثر ذبحاً لأبله والنضال تمرين على الحرب وهو المباراة⁽⁵⁾ برمي السهام والإصابة بها.

وجملة القول إن للعرب عادات وتقاليد عديدة يمكن إيجازها في المسائل الآتية:

الاستقسام بالأزلام عند هيل: وهي نوع من استشارة الغيب أو معرفة رأي الآلهة.

عرف العرب منذ القديم مناسبات الأفراح كالزواج والختان وولادة الذكور ونبوغ شاعر وولادة الفرس وشرب الخمرة ولعب الميسر.

1-الأفراح: وكانت وليمة الزواج عادة متبعة عند جميع العرب غنيهم وفقيرهم، إذ لا يمكن أن يقتن رجلًا بامرأة، دون أن تقام الولائم ويضرب الدف ويعزف الغناء وتبسط الأطعمة والشراب، فهذا مظهر من مظاهر الفرح في المجتمع العربي القديم، أحيط بالعناية والتنظيم والكرم، تدبج فيه الأغنام وتنحر فيه الإبل، ويدعى إليها ذواو القرابة من الزوجين وأصدقائهم.

وكانت الولائم تتناسب مع مكانة العريس الاجتماعية وثراء الأهل وفقيرهم، فإن كان غنيا، عظمت وليمته ودعا إليها أهل الطرب وكانت فيها المأكولات الشهية والخمور المعتقة ويقال للطعام، الذي يقدم في العرس " الشندح" وللبوليمة "الإملاك" أما ما يقدم للعروس من طعام خاص فيسمى وليمة العرس⁽⁸⁾، وغن كان فقيرا كانت الوليمة متواضعة والمأكولات عادية بسيطة.

وكانت العروس قبل أن تزف على بيت الزوجية يوصيها ولها عند وداعها، إذا كان العريس من طوي القرى قائلا: "أيسرت وذركت وأنت جعل الله منك عدد وعزا

الزجر والعيافة: وهي الاستدلال بالطير أو بالحيوان أو بصورة على الحوادث.

الطرق بالحصى في الغرض نفسه.
الفأل والتطير: وهما التفاؤل والتشاؤم بالطيور والأسمال والأعمال...الخ.

جر النواصي: وهو أنهم كانوا إذا أطلقوا الشريف من الأسر جزوا ناصيته ليفخروا بها، وإذا أسروا شاعروا عدوا ربطوا لسانه بتسعة وإذا مرض الأمير حملوه على الأعناق وإذا تنصبوا للثأر حرموا على أنفسهم الخمر والتطيب أو التحمل ولا يوجد حد فاصل عندهم بين العادات والأعراف والدين، فالأعراف عادة أقرها المجتمع والدين عادة سلكها الإنسان إما أن يكون قد ابتدعها لنفسه ليحتمي بها في أوقات الخوف أو أنه ورثها عن الأنبياء والرسل، بل فقد اختلط الدين بالعرف حتى أصبح من الصعب على المرء الفصل بينهما وقد قال الخطيئة⁽⁶⁾ في هذا السياق: "لا يذهب العرف بين الله والناس" أي أن الله والناس يحفظون العرف.

وقد ورد في القرآن الكريم بصيغة الأمر قوله تعالى: "خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين"⁽⁷⁾.

ثانيا: مناسبات اللهو والأفراح عند العرب:

العروس باسم الزفة . ومن عادة ذوي القرابة من آل العروس والأصدقاء إقامة ولائم العروسين بعد الزفاف وعند انتهاء الوليمة يرافق المدعوون العريس إلى بيته في موكب يعلو فيه الطرب وضرب الدفوف، وقد يبقى المدعوون حتى الصباح حيث يحيون ليلتهم بالشرب واللعب، وتعطر العروس بالعبير بأنواع الطيب المختلفة وذلك حسب سعة حالها وأحوال أهلها، أما ملابس العروس فإن رداؤها فقد اشتهر بطيب رائحته، قال الأعشى (١١) :

وتبرد بهرد رداء العروس

في الصيف رفرقت فيه العبير
ويصير معكب العروس إلى بيت الزوجية ليلا
أو تحار أو كيفما اتفق عليه، ويشارك فيه الرجال والنساء على حد سواء بمحيطون مصهبوات الإبل وربما الجياد المزينة بالهودج والسرورج، وتحمل العروس بين يديها النار.
وقد روي عن أسماء بنت عبد الله العدنية قولها (١٢) : " لا تعطر بعد العروس " وقد أصبح هنا القول مثلاً سارياً بين العرب.

أما عن أثاث العروس وأدواتها فإنها كانت شبيهة بما يجري في أيامنا المعاصر فكانت جميع الملابس ومواد الزينة في قفص تدعى " نقشوة " وتحمل معها إلى بيت الزوجية وفي

وخلداً، أحسنى خلقت وأكرمى زوجك
وليكن طيبك الماء...".

أما إذا زوجت من رجل غريب عن القبيلة فيقول لها: " لا أسرت ولا ذكرت فإنك تدنين البعداء، أو تلدين الأعداء أحسنى خلقت وتحبي إلى أمائك، فإن فهم عينا ناطرة إليك، وأذا سامعة إليك وليكن طيبك الماء " (٩).

وكانت قريش وجل العرب على هذا المذهب الذي يريد للأقارب القوة والمناعة وللأبعد الضعف والتشتت والافتقار، وهي ظاهرة كانت شائعة عند الشعوب القديمة، لأنها تعتمد على الحمية القبلية.

وبعد هذه الوصية تزف العروس إلى عريستها معها صديقاتها وأهلها، وقد يقترن خروجها في الغالب من منزل والدها بضرب الدفوف والغناء والطرب.

وقد ذكر في هذا المجال أن أهل يثرب كانوا ينتهزون المناسبات ويرددون أغنية مطلعها :

أتيناكم أتيناكم

فحسبنا ومعاكم

ولولا الذهب الأحمر

ما حللت بواديكم

ولولا الحنطة السمرا

ما سممت عذاريتكم (١٠)

ويطلق على الليلة التي تزف فيها العروس إلى عريستها " ليلة الزفاف " ومعناها

لها قشوة فيها ملاب وزنبق

إذا عزب أسرى إليها تطيباً⁽¹³⁾.

وكانت البنت العذراء، التي لم يفضى بكرتها تسمى عندهم البكر ويقال مثل الرجل الذي لم يلمس أية امرأة⁽¹⁴⁾ وكان لسلامة البكارة مكانة عندهم أهمية بالغة تتصل بالشرف اتصالاً مباشراً سواء بالنسبة للمرأة أو للرجل وليلة الدخول بالعروس يعرض دم البكارة ثم قميص العروس على الأقارب ليكون شاهداً على سلامة وطهارة بكارتها ودليلاً على شرفها ويطلق على البنت، التي تحافظ على بكرتها حتى ليلة الزفاف "بنت اسعد"⁽¹⁵⁾.

أما ملابس العرس فتكون نظيفة أو جديدة مصبوعة بصفرة الزعفران لأن اللون الأصفر عند أهل الحجاز في ذلك العصر كان يدل على العرس والفرح والبهجة وبالإضافة إلى ذلك فقد كانوا يصبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران ويكحلون عيونهم بالكحل الأسود. لقد كان الزوج الجديد يقابل في الدعوة إلى الوليمة بكلمات الشكر والتمنيات له بالسعادة في الحياة الزوجية الجديدة.

ويقال له بعد انتهاء الوليمة وعند انصرافه إلى بيته "على الطائر الميمون" وبالرفاه والبنين.

وكما كان العرب يحتفلون ويفرحون بمناسبة الزواج، فقد كانوا يقيمون الولائم ويضربون الدف ويغنون الأغاني بمناسبة ختان الغلمان،

والختان في الأصل عادة قديمة عند العرب وهي نوع من العبادة الدموية، التي كان يقدمها الإنسان إلى الآلهة، بل فقد كانت تعد من أهم العبادات في الديانات القديمة، لأن قطع جزء من الجسم البشري وإسالة الدم منه تعد تضحية ذات أهمية في عرف ذلك العصر، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوع من التقرب من الآلهة أيضاً.

والختان في الديانة الخنيفية من سنن الفطرة والطهارة، التي أمر بها إبراهيم عليه السلام في الألف الثانية قبل الميلاد.

وقد اخبرنا القرآن الكريم بذلك فقال: "وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات⁽¹⁶⁾ فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال : ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين"⁽¹⁷⁾.

ولما جاء الإسلام جعلها سنة من السنن، أما الرجل الذي لا يختن فكان يطلق عليه عند العرب أسماء "فضة" وهي عيب في عرفهم ويعتبر عن المختن ناقصاً، وهذه الأسماء هي: "أفقل" و"أعلق" أو "أعزل" وكانوا يعتقدون أن الولد إذا ولد في ليلة قمرء ارتدت قلفته وصار كالمختون.

وعلى أية حال فإن العرب كانوا يقيمون الأفراد في مناسبة الختام فيدعون الأقارب والأصدقاء إلى حضور وليمة ويلبسون الأطفال أجمل وأنظف ما عندهم من حلل وثياب⁽¹⁸⁾.

لآخر عتبات ومنازعات وحروب دام بعضها سنين عديدة.

ولعل من أهم وأبرز مظاهر البهجة والترويح على النفس وملاً الفراغ، الذي كان يعانيه المجتمع العربي القديم في تلك الصحراء القاحلة المترامية الأطراف تعاطي الخمرة بجميع أنواعها وأسمائها وألوانها وكانت عند بعضهم ضرورة للغبطة والانشراح وبعث النشوة في النفس، قال الشاعر:

وإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير

وإذا صحت فإنني رب الشوبهة والبعر

في الوقت الذي كانت عند البعض الآخر ميلاً لإضعاف الشخصية وسلباً للمال وإذهاباً للعقل، ولعل ما يدل على اهتمام العرب القدامى بالخمرة وانتشاره بينهم كثرة الأسماء والأنواع المتعددة التي عرفت بها، ومن هذه الأسماء: العقار والسلافة والقهوة البابية والمزر والبيع والجعة والصريفية والراح والمدامة والصهباء...

لقد كان هذه الأسماء كلها أسباباً ونسبة لأفعال أو أماكن أو بيئات معينة، فقد قالوا على سبيل المثال:

العقار وذلك لمعاقرتها وملازمتها البدن، ومعاقرة الخمر هو الإدمان في شربها وسموها "السلافة" ومعناه ما سأل وتخلب قبل العصر هو أفضل الخمر.

والحق أن ظاهرة الختان منتشرة في كل العالم الإسلامي ليس فقط بالنسبة للذكور بل فإن بعض شعوب إفريقيا يحرون عسلة الختان حتى على البنات أيضاً.

إن الحديث عن أفراد الزواج والختان يؤدي بنا على الحديث عن الأفراح اليومية لدى الشباب وانغماسهم في اللهو والطرب والتجمل والتأنق ومجالس اللعب والشراب، ونحو ذلك من مظاهر الغبطة والبهجة والسرور، التي كان فتیان العرب يمارسونها في أحبابهم وفي أحياء غيرهم.

ولقد إن في المجتمع العربي القديم طبقة من أبناء الأثرياء وأصحاب الخاد عرفت باسم "الفتيان" ومفردتها فتى ومعناه: الشاب الكريم السخي وقد اشتقت الكلمة من الفتوة⁽¹⁹⁾.

2- شرب الخمر: تشير الأخبار إلى أن هذه الجماعة عاشت في هو وشرب وسفاهة الفيان تنفق وتعطي وتقضي وقتها في اللذة والاستمتاع والإنفاق على الجسد.

ويبدو أن شباب العرب القدماء كثيرهم من شباب كل عصر في الأناقة والبذخ واستمالة العذارى.

وتشير المصادر إلى أسماء عديدة من الفتيان اضطر أبائهم إلى زجرهم بسبب تباعسهم حتى على بنات حبيهم مما كان يحدث من حين

ويبدو أن عمر بن كلثوم⁽²¹⁾ يشير إلى هؤلاء
الفتيان في مطلع قصيدته عندما قال:

ألا هي يصححك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا

ومن الخمور الشهيرة في اجتماع العربي
القديم "الإسفنط" وهو المطيب من عصير
العنب وقيل هي خمرة فيها أفاوية، وقد ذك
بعضهم أن اللفظ روحية.

وقد استعمل العرب أواني فاخرة لشرب الخمر
فكانت من الزجاج والبلور والذهب والفضة
حسب الحالة الاجتماعية ومزلة الشارين
ومكانتهم فأثرياء مكة وكبرائها مثلاً تفننوا في
آنيات الشراب المصنوعة من الذهب والمنقوشة
ومنهم "عبد الله بن جدعان" الذي ضرب به
المثل وعرف "بجاسي الذهب".

ونقلت الأخبار أن الشاعر "النابعة الديباني"
كان لا يأكل لا يشرب إلا في آنية من
الذهب والفضة، وهي من عطايا النعمان وأبيه
وجده، ولا يستعمل غير ذلك من المعادن.

والحق أن بعض العرب قد تعفّفوا عن شر
الخمر وحرّموها على أنفسهم بعد أن عرفوا
مساوئها وأخطارها وعواقبها الوخيمة،
فامتنعوا عن شربها صيانة لكرامتهم وحفاظاً
عن صحتهم وتجنباً لأنثارها السلبية على الأفراد
والجماعات، غير أن الأخباريين يذهبون إلى
القول أن الذين حرّموا على أنفسهم تعاطي

وقالوا "المدامة" لأن الملازم للشراب يعرف
بالمدمن وفي ذل قالوا "مدمن الخمر كعابد
الوتن".

وقالوا "الصريفية" نسبة إلى قرية "صريفون"
بالعراق.

وقد استخرج اليمينيون من الشعير شراب باسم
"المزّر" و"اليتع" هو نبيد العسل والجنة نبيد.
الشعير والسكر من التمر والخمر من العنب.

ويبدو من روايات الإخباريين أن العرب
القديم كانوا يكثرّون من تناول الخمور حتى
أن أهل البادية مثلاً كانوا يضعونها في "رق"
(إناء) يحملونه معهم إلى حيث ذهبوا.

أما في المدن والحوضر فكان هناك حانات
يقصدها المدمنون على شرب الخمر لاسيما
السياح والغرباء للاستمتاع بلذتها والترفيه عن
خاطرهم لوجود مغنيات وراقصات.

وتشير المراجع إلى انتشار همارات على جانبي
الطرق العامة، حيث يتزل بها المسافر بعد
التعب وكان معظم روادها من النصارى
واليهود وغيرها.

وقد حملت هذه الحانات أسماء متعددة منها:
الحانوت، والمواخر، والدكة، وقد أطلق على
الفتيان الذين يجتمعون على هذه المحلات اسم
"الأندرين" لأنهم يتنادرون فيما بينهم بالنكت
وبكل شاد يخرج عن المؤلف⁽²⁰⁾.

بالحياة الاجتماعية، ولعل ما يؤكد شغف العربي بشرب الخمر والتعلق به ما جاء في القرآن الكريم من وصف للخمر ولأوانه المميزة وبعض ما يعطر بها وإقناع العرب بترك ما كانوا عليه من سكر وإدمان على الخمر يذهب عقولهم ويعددهم عن تقوى الله وطاعته، فقد حرم الله الخمر على المسلمين على مراحل نظرا لما لهذه العادة من التصاق بنفس المدمن وصعوبة الإقلاع عنها:

ولما كان الإسلام يتطابق مع الطبيعة البشرية فقد راع ظروف العرب القدامى البيئية، التي تجعل الكثير منهم يلجأ إلى تعاطي الخمر الملء فراغه للتغلب على قساوة الطبيعة الصحراوية التي وجدوا فيها، بل فإن القرآن الكريم وعد المسلمين بخمر طهر في الجنة تشويقا للمدمنين عليه في الدنيا حتى يمتنعوا عن تعاطيه، ومن الآيات التي أشارت إلى الشرب في ظروف مختلفة قوله تعالى: "ويطاف عليكم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير، من فضة قدروها تقديرًا" (26).

وقوله تعالى: "ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجيلا، عينا فيها تسمى سلسيلا، ويطوف عليهم ولدان مخلدون، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا، عليهم ثياب سندس خضر

الخمرة كانوا في أغلبهم من الأحناف الذين كانوا على الديانة الحنيفية وهي بقايا ديانة إبراهيم الخليل عليه السلام وظهروا قبيل ظهور الإسلام يدعون إلى إحياء دين الحنيفية ونبد الشرك وكل القيم التي ارتبطت بالوثنية الضالة المنحرفة عن ديانة إبراهيم عليه السلام، وقد قال "قيس بن عاصم التميمي" (22).

لعمرك إن الخمر ما دمت شاربا
لسالبة مالمسي ومهبة عقلي (23)

وتاركة بين الضيوف قراهم
ومورثة حرب الصديق بلا حمل
ومن الأسماء التي ذكرت في تحريم الخمر والزنا "عفيف بن معد يكرم" "الكندي عم الأشعث بن قيس" الذي قال في ذلك:

وقالت لي : هلما إلى التصابي
فقلت : عفت عما تعالما
وودعت القداح وقد رآني
ها في الدهر مشروقا رهينا

وحرمت الخمر علي حتى
أكون بقعر ملحود دفيناً (24).
وقد ذكر أن "عباس بن مرداس" (25) قيل له
لم لا تشرب الخمر فتزيد في جرأتك؟ فقال
:"أنا بأخذ جهلي بيدي، فأدخله جوفي
وأصبح سيد قومي وأمسي سفيهم".

وجملة القول أن شرب الخمر وبجالاته عند العرب القدامى كان من مظاهر اللهو المتصل

وهو أسلوب يعود المذنبين على التخفيف من غلوائها فقال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى..."⁽³⁰⁾.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة النهي المطلق وقد جاءت بعد أن بين لهم ضرر الخمر المادي والمعنوي وتعارضه مع أكبر شعيرة من شعائر الدين الإسلامي الحنيف وهي الصلاة فقال: "يا أيها الذين آمنوا غنما الخمر والميسر والأتصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون"⁽³¹⁾.

3-الميسر: يعد الميسر من أهم وسائل اللهو الاجتماعي المتصلة بالحياة اليومية عند العرب القدامى، إذ لم تكن مسألة التحريم بشكلاها ومضمونها للإسلاميين قد وجدت بينهم آنذاك حول هذه اللعبة.

والميسر حسب المفسرين مجموعة عيذان من شجر التبغ، كانت تتقف وتسوى كالسهم وترمى على سبيل المراهنة، وعددها عشرة وقد روى علماء اللغة والمفسرين أن كلمة الميسر مشتقة من اليسر بمعنى السهولة، لأن متعاطي الميسر يسعى إلى الكسب بيسر وبدون تعب.

ويرى فريق آخر من اللغويين والمفسرين أن الميسر تعني لغة التجزئة لأن الفتيان الذين

واستبرق وحلوا أسوار من فضة وسقاهاهم ربهم شرابا طهورا"⁽²⁷⁾.

وقوله تعالى: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آس وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خضر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى وهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءا حميما فقطع أمعاءهم"⁽²⁸⁾.

هذه الآيات وغيرها أعطت البديل للعرب القدامى الذين كانوا مدمنين على تعاطي الخمر أو الذين تميل أنفسهم إلى تعاطيها وهو بديل متميز عما يعرفه الناس من شراب في حياتهم الدنيوية بأن وعدهم الله بشراب لذيد منعش حلو مذاقه اسمه "الخمر".

وقد سلك معهم منهجا مرحليا عد ذلك لإبعادهم عن تناول كل المسكرات، لأنها تذهب العقل وتسرف المال، فجاءت الآية الأولى لتضخم اسم متناول الخمر وتعترف في الوقت نفسه بمنافعه للناس من الناحية الاقتصادية، فقال تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون"⁽²⁹⁾.

ثم تأتي المرحلة الثانية فيأمر فيها القرآن الكريم الناس بالامتناع عن السكر في أوقات الصلاة

جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب القدامى

كانوا يتعاطون الميسر خاصة في الليل، كانوا ينحرون الجزر أو الحاشي (ابن الناقة) ويجزئونه في معرض المراهنة.

وقد ذكر الميسر في عدد من الآيات القرآنية والتي لم تفصل نوعه أو شكله أو كيفية استخدامه، وإنما أوردته مجملاً ينسحب على كل الألعاب المفلسة التي تهدر المال والوقت معا حسب ما يراه المفسرون، ومن هذه الآيات التي جاء فيها قوله تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعها ويسألونك عن ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون" (32).

وقد احتوت هذه الآية عن السؤال والجواب الذي يبين للمتسائلين أن الميسر فيه فوائد مادية للناس ولكن إثمها أكبر من منفعته، وهو أسلوب قرآني خاص كما يرى المفسرون الغرض منه تعويض الناس على ترك هذه العملية بالتدرج، لكي لا يصطدم على تعاطيه آناء الليل وأطراف النهار.

وقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب رجز من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" (33).

لقد جمعت هذه الآية بين الخمر والميسر والأنصاب والأزلام واعتبرتها رجسا من عمل

الشيطان فإن القرآن الكريم قد نهي عنه بفعل الأمر "فاجتنبوه لعلكم تفلحون".

أما في الآية الثانية فقد وضح ضرر هذه المسائل المنهى عليها بقوله: "إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" (34).

أما طرق لعب الميسر فبناء على ما جاء عند بعض المؤرخين فإن للعب الميسر، أن فتيان العرب من ذوي اليسر كانوا يشترون جزورا وينحرونه ويجزئونه إلى عشرة أجزاء أو أكثر، ثم يتراهنون فيما بينهم على ثمنه بقذف السهام فيغرم من: اخطأ سهمه ويربح من أصاب الهدف، ويدفع ثمن الجزور الغارمون ويوزع اللحم على الفقراء وذوي الحاجة.

أما الذي يذبح الجزور فكانوا يطلقون عليه اسم "الياسر" يسمون السهام بأسماء يجعلون لها مراتب قيمة في الربح والخسارة.

أولها: النقد وثانيها التوأم ثم الرقيب ثم الحسن ثم النافس ثم المسبل، ثم المعلى ثم المنيع ثم السنيح ثم الواعد وليس للثلاثة الأخيرة أنصبة.

فمن اختار الفد وأصاب فله حصة واحدة وإن اخطأ فعليه حصة واحدة.

أما من اختار التوأم وأصاب فله حصتان وإن اخطأ فعليه حصتان... الخ

وأحيانا يتجاوز هذه الألعاب إلى الكسل وتحصيل المال بطرق سهلة كالميسر مثلا. هذه دراسة مركزة على حياة اللهو والأفراح وغيرها من الألعاب المتعددة التي مارسها العرب القدامى بما كانت تقدمه لأفراد المجتمع في بيئة صحراوية كثر فيها الفراغ فحاول الشباب العرب ملأ ذلك الفراغ وترويض قساوة الطبيعة بهذه الوسائل الترفيهية بما فيها من سلبات أخلاقية مؤثرة في حياة الفرد والجماعة وإيجابيات نفسية للشباب العربي.

وهكذا ترتفع حصص الربح والخسارة إلى المعلى وصاحبه يربح سبع حصص أو يغرم سبعا. ويبدو أنهم كانوا يוכלون ضرب الأقداح أي الأزلام لشخص وقذفها باسم المتراهن ويفسر هذا الوكيل في بعض المعاجم بأنه أمين القامرين. وجملة القول أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها كانت من أسباب اللهو الشرف يتسلى بها فتيان العرب في الليالي المقمرات في تلك الليلة المقفرة.

هوامش المقال:

- 12- هذا المثل قالته أسماء بنت عبد الله العذرية، واسم زوجها عروس وكان من أقاربها ثم مات عنها وتزوجت بعده من رجل من قومها، أعسر، بنخل، دميم يقال له "نوفل" ولم أراد أن يظعن بها، قالت: "لو أذنت لي، رثيت ابن عمي وبكيت عند رأسه" فقال: "افعلي" فقالت: "أبكيتك يا عرس الأعراس، يا ثعلبا في أهله وأسدا عند البأس مع أشياء الناس" فقال: "وما تلك الأشياء؟" فقالت: "يا عروس الأغر الأزهر الطيب الخيم، الكريم الطيب المحضر، مع أشياء لا تذكر، فقال: "وما تلك الأشياء؟" فقالت: "كان عيوفا للخنأ المنكر، طيب النكهة غير أبخر، أيسر غير أعسر" فعرف الرجل أنها تعرض به، فلما رحل بها، قال لها: "ضمي عطرك" فقالت: "لا عطر بعد عروس"، فأصبح مثلا لا

- 1- هي لعبة يدوية مشهورة.
- 2- محمد صالح برتند: تاريخ ما أهمله التاريخ، البادية العربية، ص 130-131.
- 3- محمد عبد الله عراي: "ديوان عنتر"، مجلة النهل، ج 6، مجلد 28، جمادى الثانية، 1387هـ، سبتمبر 1967، ص 77.
- 4- الزبيدي: المصدر السابق، ج 3، "مادة جار"، ص 111.
- 5- وهي ثلاثة أنواع: مبادرة ومخاطة ومناضلة.
- 6- الأصهبالي: المصدر السابق، ج 2، ص 174.
- 7- سورة الأعراف، الآية: 199.
- 8- الألويسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المصدر السابق، ج 1، ص 386.
- 9- نفسه، ج 2، ص 03.
- 10- جواد علي: المرجع السابق، ج 4، ص 647.
- 11- الزبيدي: المصدر السابق، ج 3، ص 377.

جوانب من الحياة الاجتماعية عند العرب القدامى

عمر بن هند دافعاً عن كرامة أمه، شعره مرجع تاريخي اجتماعي، قوي العاطفة، متين السبل، له ديوان ومعلقة.

- 22- قيس بن عاصم (ت نحو 20هـ/640م) : من شعراء الجاهلية، أسلم وفد غنيم سنة 631.
- 23- الألوسي: المصدر السابق، ج2، ص299.
- 24- عبد الرحمن السعدي الأندلسي: مساوي الخمر، الألوسي، المصدر السابق، ج2، ص294.
- 25- عباس بن مرداس (ت نحو 639): شاعر سلمي، أسلم هو وقومه.
- 26- سورة الإنسان: الآيتين، 15-16.
- 27- سورة الإنسان: الآيات، 17-21.
- 28- سورة محمد: الآية، 15.
- 29- سورة البقرة: الآية، 219.
- 30- سور النساء: الآية، 43.
- 31- سورة المائدة: الآية، 90.
- 32- سورة البقرة: الآية، 219.
- 33- سورة المائدة: الآية، 90.
- 34- سورة المائدة: الآية، 91.

محباً لعطر بعد عروس، انظر الزبيدي تاج العروس، مصر سابق، ج4، ص188 (مادة عرس).

- 13- الأعرشي: "ديوان"، المطبعة الأدبية بيروت، 1908، ص203، ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص531، "عبر" الزبيدي: تاج العروس، مصدر سابق، ج3، ص377.
- 14- الزبيدي، المصدر السابق، ج3، ص67.
- 15- الزبيدي: المصدر السابق، ج2، ص377.
- 16- المقصود بهذه الكلمات هي خمس في الرأس وخمس في الجسد فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والفرق والسواك، وأما التي في الجسد فالاستنجاد وتقليم الأظافر ونف الإبط وحلق العانة والختان.
- 17- سورة البقرة، الآية: 124.
- 18- الزبيدي: المصدر السابق، ج6، "مادة قلف"، ص226.
- 19- الزبيدي: المصدر السابق، ج1، "مادة فني"، ص275.
- 20- الزبيدي: المصدر السابق، ج9، ص201.
- 21- عسرو بن كلثوم (ت نحو 584) : من زعماء تغلب، شاعر جاهلي نمراني من أصحاب المعلقات، كان من أعز الناس نفساً، وقتل الملك